الفصل الثالث

وظيفة الفلسفة في العالم العربي الإسلامي المعاصر

عزمي طه السيد أحمد[1]

مقدمة

قد يبدو السؤال عن وظيفة الفلسفة -بعد أن مضى على ظهورها، بوصفها نظاماً معرفياً متميزاً يجري تداوله وتعليمه، أكثر من خمسة وعشرين قرناً- سؤالاً غريباً أو غير متوقع. لكن المطّلع على تاريخ الفلسفة عبر هذه القرون الطويلة سيجد أن هذا السؤال كان مطروحاً في كل العصور، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وأنه لا يزال يطرح في عصرنا الحالي عند فلاسفة الغرب، الذين ازدهرت عندهم الفلسفة حديثاً أكثر مما في العالم الإسلامي، وعليه، فإذا كان هذا السؤال مطروحاً ومشروعاً في العالم الغربي الحديث والمعاصر، فإنه أولى أن يكون سؤالاً مشروعاً في العالم الإسلامي المعاصر.

إن دارس الفلسفة المتتبع لتاريخها الطويل سيجد أن الفلسفة كانت على الدوام تؤدي وظيفةً ما في حياة الإنسان، وإن اختلفت من عصر إلى آخر، ومن مذهب فلسفي إلى آخر، بل إنها في أحيان كثيرة كانت تختلف من فيلسوف إلى آخر في العصر الواحد والمجتمع الواحد أحياناً غير قليلة.

---

(1) دكتوراه في الفلسفة الإسلامية، جامعة أدنبره/ المملكة المتحدة. أستاذ الفلسفة الإسلامية، جامعة آل البيت- الأردن. البريد الإلكتروني: abutaha.azmi@gmail.com

obeikan.com

إن التفلسف عمل جادّ وشاق؛ إذ هو بحث يتصف بـ"التعمق في البحث" عن الحقيقة في الموضوعات التي يتعرض لها، ومثل هذا العمل الجاد لا يجوز أن يُظن أنه بلا وظيفة يؤديها في حياة الإنسان، بل إننا نقول: إن أحد معايير تقويم الفلسفات هو النظر فيما قدمته للإنسانية جمعاء، أو على مستوى المجتمع والبيئة التي ظهرت فيهما.

إن من موجبات طرح السؤال عن وظيفة الفلسفة في العالم الإسلامي المعاصر، الصفة الغالبة على النشاط الفلسفي لدى عامة المتعلمين وغالبية المشتغلين بالفلسفة، وهي الاشتغال بفلسفة الآخر: ترجمتها أو دراستها وعرضها أو نقدها أو استشكال ما استشكلته تقليداً،[2] أو عجزاً عن إبداع نشاط فلسفي نابع من واقع الأمة بما فيه من مشكلات وتطلعات وطموحات، ومن تاريخها وذاتها، الأمر الذي يجعلنا نطرح هذا السؤال عن وظيفة الفلسفة والنشاط الفلسفي، لعلَّ في وضوح الإجابة عنه ما يعين على التأسيس لفلسفة عربية إسلامية، وعلى "أن ننهض إلى التفلسف بما يختص بنا لكي نحيا، لا بما يختص بعدونا لكي نموت... وأن نبادر إلى التفكير في كيف نتفلسف من أجلنا"، كما يقول طه عبد الرحمن.[3]

في إجابتنا عن هذا التساؤل سنستعين بالفلسفة وتاريخها؛ ذلك أن تاريخ الفلسفة -الذي هو في الوقت نفسه فلسفة- قد انطوى على إجابات متعددة تكاد تستوعب كل الأجوبة المحتملة عن وظيفة الفلسفة، وسيكون مرشدنا في هذه الاستعانة -التي لن تكون نقلاً أو تقليداً- قول رسولنا محمد ﷺ: "الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها"، فنحن نطلب الحكمة والحق، ونقول مع فيلسوف العرب؛ الكندي (ت256هـ تقريباً): "وينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا

---

(2) هذا ما لاحظه الأستاذ طه عبد الرحمن في كتابه: **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، في الفصل المعنون: كيف نقوّم اعوجاج الفلسفة العربية؟ الفلسفة المغربية نموذجاً. انظر:
- عبد الرحمن، طه. **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2002م، ص66.

(3) عبد الرحمن، **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، مرجع سابق، ص66.

والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق."[4]

وننطلق من فكرة نعتقدها، وهي: إنه على المشتغلين بالفلسفة في كل عصر أن يعيدوا النظر في وظيفة الفلسفة في مختلف جوانبها، من أجل الوصول إلى وعي أفضل بوظيفة الفلسفة، وما يمكن أن تسهم به للمجتمع الذي تظهر فيه، وللإنسانية بأسرها، وهو نظر تفرضه مشكلات كل مجتمع وحاجاته المتغيرة من جهة، ومشكلات الإنسانية وحاجاتها من جهة أخرى.

سنقوم باستعراض عدد من آراء الفلاسفة عبر العصور المختلفة في ما يخص وظيفة الفلسفة، ثم نقوم بمناقشتها والتعليق عليها، تمهيداً للوصول إلى وجهة النظر التي نراها في وظيفة الفلسفة في العالم العربي الإسلامي المعاصر، لكنّنا سنقدم لهذا ببيان يتضمن أبرز خصائص الفلسفة التي ستأتي وظيفة الفلسفة مرتبطة بها ارتباطاً عضوياً.

أولاً: الفلسفة وخصائصها

لا بدّ للباحث عن وظيفة الفلسفة من التعرف على معنى الفلسفة، وأبرز خصائصها، على النحو الآتي:

1 – الفلسفة محبة الحكمة

معلوم أن المعنى اللغوي لكلمة فلسفة في اللغة اليونانية يعني محبّة الحكمة؛ إذ هي مكوَّنة من مقطعين: Philo ومعناها محبة أو صداقة، وSophia ومعناها حكمة، فصار المعنى المكوَّن من المقطعين هو محبة الحكمة. ونحن نرى أن الوقوف عند معنى الحكمة يفيد في بيان حقيقة وظيفة الفلسفة.

لا يكاد يخلو كتاب في الفلسفة شرقاً أو غرباً من تأكيد أن كلمة سوفيا Sophia يونانية، وأن حبّ الحكمة والحكمة اختراع يوناني جاء على غير مثال سبق، لكنّه تبين لنا بالدليل الذي لا مجال للشك أو للظن فيه أن الأمر خلاف ذلك. وهذا الدليل هو قول كبير فلاسفة اليونان، أفلاطون (ت348 ق.م) في

(4) الكندي، يعقوب بن إسحاق. **رسائل الكندي الفلسفية**، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة: دار الفكر العربي، 1950م، ج1، ص103.

محاورة كراتيليوس، الذي أكّد أن كلمة Sophia ليست من أصل يوناني، لدرجة أنه عدَّها غامضة، فيقول نصاً: "كلمة سوفيا غامضة جداً، وتبدو أنها ليست من أصل محلي،"[5] وأفلاطون – في هذه المحاورة يخبرنا عن لفظ آخر معناه "حكمة" وهو لفظ [فرونيسيس ρονησiz] ويبدو أن هذا اللفظ ليس مرادفاً للفظ [سوفيا σοia]؛ إذ بيّن أفلاطون أن أصل وضعه وإطلاقه تم "في ضوء الافتراض بأن الأشياء المسماة [وهي الألفاظ: حكمة، وذكاء، وفهم، وحكم، ومعرفة] في حركة وسيلان وأنها كائنة."[6] فهذه الكلمات يونانية الأصل.

أمّا [سوفيا Sophia] التي جاءت منها كلمة "الفلسفة" فهي من أصل أجنبي، ولذلك تحيَّر بعض الشيء في تحليل أصل وضعها، ومع ذلك فقد فسَّرها في ضوء النظرية التي تقول: إن الأشياء في حركة وسيلان، وأن معنى (سوفيا) هو "التماس مع الحركة أو تيار الأشياء،"[7] وقد فعل هذا مع تأكيده أن الكلمات ذات الأصل الأجنبي كثيرة في اللغة اليونانية، والسبب في ذلك:" أن اليونانيين، وخصوصاً الذين كانوا تحت سيطرة البرابرة، غالباً ما استعاروا منهم [ألفاظاً]."[8] ولذلك فإن "أي شخص يسعى لإظهار ملاءمة هذه الأسماء [المستعارة من لغات أخرى] وفقاً للغة اليونانية، وليست وفقاً للغة التي منها اشتقت الأسماء، سيقع بالتأكيد في الخطأ."[9]

والحق، أننا إذا أردنا أن نعرف مفهوم كلمة سوفيا (حكمة) اللغوي، فإن علينا– كما قال أفلاطون– الرجوع إلى لغتها الأصلية، التي هي بالضرورة –بناء على كلام أفلاطون– ليست اللغة اليونانية. وقد قصدنا إلى إيراد هذه المعلومة عن كلمة (سوفيا) لأهمية ما يترتب على القول بأن أصلها غير يوناني من نتائج،

---

(5) أفلاطون، **محاورة كراتيليوس**، ترجم المحاورة وقدم لها بدراسة تحليلية: عزمي طه السيد أحمد، وزارة الثقافة، 1995م، ص149. وانظر تعليقنا على هذا القول في مقدمة الترجمة، ص81–83.

(6) المرجع السابق، ص147.

(7) المرجع السابق، ص149.

(8) المرجع السابق، ص144.

(9) المرجع السابق، ص144.

ومنها أن ما يقوله كثير من مؤرخي الفلسفة بأن الفلسفة اختراع يوناني معجز، ليس في حقيقة الأمر كذلك؛ لأن ما يشير إليه لفظ (سوفيا) وهو الحكمة، قد أخذته الحضارة اليونانية من حضارة أخرى، وأمم أو أمة سبقتها.

وفي هذا ما يسوِّغ لنا أن نبحث في كلمة فلسفة (محبة الحكمة) محاولين بيان معنى الحكمة التي أحبها أهل اليونان، آخذين في الحسبان "أن حبّك الشيء، لا يعني بالضرورة أنك تمتلكه،"[10] مع أن الحديث عن الفلسفة ظلّ حتى يومنا هذا بأنها تمثل الحكمة، وأن الفلاسفة هم الحكماء.

امتدح القرآن الكريم الحكمة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: 269]، وقد آتى الله الأنبياء الحكمة، فكانوا يرشدون الناس إلى أصوب الطرق في التعامل مع هذه الحياة مع أنفسهم ومع الآخرين ومع الأشياء من حولهم، وإلى أصوب الحلول لما يواجهونه من مشكلات، ووجد أناس في كل المجتمعات وصفوا بأنهم حكماء، كان الناس يرجعون إليهم فيما يحتاجون إليه من نصح ومشورة وإرشاد لمواجهة مشكلات الحياة، والتعرف على أصوب الطرق في التعامل مع أنفسهم ومع غيرهم، ومع الأشياء المحيطة بهم، وكذلك مع الخالق سبحانه وتعالى. وقد ذكر القرآن الكريم أحد الحكماء البارزين في التاريخ وهو لقمان الحكيم، وقدَّم نماذج من هذه الحكمة، وهي المواعظ التي قدمها لابنه ليكون تعامله في الحياة مع الله ومع الوالدين ومع الآخرين ومع الأرض التي يمشي عليها سلوكاً سليماً صائباً.

خلاصة ما فهمناه من استخدامات القرآن الكريم للفظ الحكمة، ومن جملة الاستخدامات اللغوية لها، ومن بعض الاستخدامات في مجال البحث الفلسفي، أنَّ الحكمة هي المعرفة العملية التي تتعلق بممارسة الحياة ومواجهة مشكلاتها. وتتسم بالصواب والتوفيق والسداد، ووضوح الرؤية في كل ذلك، وتكون هذه المعرفة مبنية ومؤسسة على معرفة نظرية بحقيقة الإنسان والحياة الإنسانية

(10) إيرل، وليم جيمس. **مدخل إلى الفلسفة**، ترجمة: عادل مصطفى، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ص14.

والوجود المحيط بالإنسان، والله خالق الإنسان.[11]

وتاريخ الفلسفة يبين أن الفلاسفة قاموا بالبحث في موضوعات المعرفة النظرية على مرّ العصور، وأنهم كانوا دوماً يحاولون أن يبيّنوا المعرفة العملية التي تُبنى على هذه المعرفة النظرية، حتى يستعين بها الإنسان في توجيه حياته الوجهة الأصوب، "لأن ذوي الحكمة إذا أرادوا أن يفعلوا شيئاً قدموا قبله النظر والبحث عن علم ما الذي ينبغي أن يُفعل،"[12] كما يراه الكندي، الذي يرى أيضاً أن الكمال الإنساني: "إنما يكون باقتناء جزءي الحكمة اللذين هما: النظر [أي المعرفة النظرية] والفِعال [أي المعرفة العملية]؛ إذ بهما الكمال الإنسي."[13]

وعليه، فإن الفلسفة لم تَحِدْ كثيراً عن المعنى اللغوي، حتى بعد أن صار اسمها "محبة الحكمة" (فلسفة)، وأن الفلسفة لم تكن ترفاً فكرياً، وإنما كانت عملاً عقلياً جاداً له وظيفته الاجتماعية الكبرى التي تمس كل جوانب حياة الإنسان، من أجل تحقيق ما أسماه الكندي "الكمال الإنساني" الممكن، فالفلسفة التي هي الحكمة، كانت وظيفتها وغايتها عند الشعوب إرشاد الإنسان، وهدايته إلى أصوب الطرق في كل تعاملاته في هذه الحياة مع نفسه، ومع الآخرين ومع الوجود، ومع الله.

وظيفة الفلسفة هذه، تتفق مع وظيفة الدين التي هي الهداية. فالفلسفة بهذه الوظيفة مارست عبر التاريخ دور المنافس القوي للدين، كونها تربط هذه الوظيفة العملية؛ أي الهداية والإرشاد، بجانبها النظري الذي هو بحث عن الحقيقة، فكان

---

(11) معلوم أن المعرفة الإنسانية لحقيقة الإنسان والكون والموجودات قد تضاعفت عما كانت عليه عدة مرات إذا ما قورنت بما كان عليه الحال قبل قرنين أو حتى قرن من الزمان، وذلك من خلال العلوم الجزئية، الأمر الذي يفترض أن حكمة الإنسان ستتضاعف بالنسبة نفسها أو قريباً منها، فهل واقع الحال يؤيد هذا؟ هل إنسان القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين أكثر حكمة من الإنسان قبل ألف سنة أو ألف وأربعمائة سنة؟ (والإشارة الأخيرة هنا إلى عصر النبي محمد -عليه الصلاة والسلام- وصدر الإسلام الأول). لا أستطيع الجزم بأننا اليوم -مع تقدم معارفنا الهائل- أكثر حكمة مما كان عليه أهل القرون الماضية.

(12) الكندي، **في الصناعة العظمى**، حققه وقدم له: عزمي طه السيد أحمد، قبرص: دار الشباب، 1987م، ص122.

(13) المرجع السابق، ص121.

لسان حال الفلسفة: "إنني أقدم هداية للإنسان مبنية على الحقيقة التي وصلت إليها في بحثي النظري عن الحقيقة، بينما الدين يقدم هداية وإرشاداً عملياً دون أن يُبين الأساس النظري الذي قام عليه وانطلق منه". وهذا ما نجده عند فيلسوف مسلم كبير هو الفارابي (ت339هـ) على ما سيأتي بيانه.

2 - أبرز خصائص البحث الفلسفي:

بيَّنا الارتباط العضوي بين خصائص الفلسفة الرئيسة، والوظيفة التي نرى أن على الفلسفة النهوض بها في العالم العربي الإسلامي المعاصر، تأسيساً لهذه الوظيفة وتأصيلاً لها. وتتمثَّل الخصائص البارزة للفلسفة في الآتي:

أ - الموضوعات التي بحثتها الفلسفة إنسانية؛ بمعنى أنها مرتبطة بالإنسان وحياته وسلوكه والوجود الذي يحيط به ويتعامل معه، بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ويكفي للتدليل على هذه الصفة استعراض المباحث الفلسفية منذ ظهور الفلسفة حتى وقتنا الحاضر، لنجدها كلها مرتبطة بالإنسان وحياته وسلوكه، والوجود الذي يحيط به ويتعامل معه.[14]

ب - تبحث الفلسفة عن حقيقة الموضوع الذي تدرسه، فجميع الفلاسفة كانوا يقولون على الدوام إنهم يبحثون عن الحقيقة، سواء أكانت حقيقة الوجود، أم الإنسان، أم الأخلاق، أم المعرفة، أم الجمال، أم اللغة، أم الدين، أم العقل... إلى آخر ما بحثه الفلاسفة من قضايا ومشكلات. وهذه الخصيصة للفلسفة لا تعني أن جميع الفلاسفة كانوا فعلاً مخلصين للحقيقة في بحث ما بحثوه من موضوعات، وإن كان قولهم في الأعم إنهم مخلصون للحق والحقيقة.

ت - لم تترك الفلسفة موضوعاً إلا وبحثت فيه، كما لاحظ ذلك الفارابي (ت339هـ) الذي قال: "لا يوجد شيء من موجودات العالم إلا وللفلسفة

(14) انظر تفصيلاً لهذه الفكرة في:
- السيد أحمد، طه عزمي. **الفلسفة: مدخل حديث**، عمّان: دار المناهج، 2003م، ص27-31.

فيه مدخل، وعليه غرض، ومنه علم، بمقدار الطاقة الإنسية."[15] ويدخل تحت عنوان البحث عن الحقيقة -أحياناً- قدرة الفلسفة على تبرير واقع معين أو اعتقاد مخصوص، على أنه هو الحقيقة أو الخبر الحقيقي، وذلك بما تملكه صناعة الفلسفة من جهاز مفاهيمي متقدم ومعقد في أحيان كثيرة، وما توظفه من أساليب الاستدلال والجدال المختلفة.

ث - يغلب على البحث الفلسفي صفات: الكلية والتعمق وما ينبغي أن يكون؛[16] فصفة الكلية تعني عدم الاهتمام بالأحوال الفردية، وإنما بالكلي من الأحوال، كما هو معروف في مباحث الوجود والإنسان والأخلاق والجمال والعقل، فالبحث هنا عن حقيقة كل الوجود لا حقيقة جانب منه، وعن حقيقة النوع الإنساني منذ كان الإنسان لا حقيقة فئة من الناس، وهكذا في جميع المباحث.

وصفة التعمق في البحث تعني عدم الوقوف في التحليل والتفسير والكشف عن الأسباب عند ظاهر الأمر وسطحه القريب، وإنما الاستمرار في التحليل إلى نهايته، والبحث عن الأسباب البعيدة والعلل الأولى، أو - كما يحلو لنا قوله- "البحث عن السبب، وسبب السبب، وسبب سبب السبب... حتى نصل إلى أصل الأسباب كلها".

وأمّا صفة البحث عمّا ينبغي أن يكون، فهي بحث عن الحال الأمثل والأكمل، التي ينبغي أن تكون عليها جوانب الحياة والسلوك، وعن المعيار الذي تقاس إليه الأمور قرباً أو بعداً، كما هو معلوم في مباحث القيم في مجال الأخلاق والجمال وغيرها.

ج - تعكس الفلسفة ذات صاحبها الفردية، فمهما حاول الفيلسوف أن يكون موضوعياً في بحثه وتحليلاته ونقده ونتائجه، فإن فلسفته لا بدّ أن تأتي في

---

(15) انظر تفصيلات أوفى لهذه الصفات في:
- المرجع السابق، ص52-56.

(16) الفارابي، أبو نصر. **كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين: أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس**، تحقيق: ألبير نصري نادر، بيروت: دار المشرق، 1968م، ص80.

النهاية عاكسة ذاته بما فيها من معتقدات ومسلّمات وطموحات ومدخلات معرفية وثقافية، والزاوية التي ينظر منها إلى موضوعات بحثه، ولهذا وغيره من الأسباب اختلفت آراء الفلاسفة كثيراً أو قليلاً باختلاف ذواتهم وفردانية كل واحد منهم، وهو أمر لا نجده بهذه الصورة في العلوم الأخرى.

ح - تعكس الفلسفة واقع العصر وظروفه وتتجاوزها، فالفيلسوف إنسان مرهف الحس، شأنه شأن المفكرين والأدباء والفنانين، يعيش في بيئة اجتماعية معينة لها واقعها وظروفها ومشكلاتها، ويحس بالمسؤولية نحو مجتمعه الخاص، وأحياناً يمتد هذا الإحساس إلى المجتمع الإنساني بأكمله، ومن هذا الحس بالمسؤولية يقوم بنقد هذا الواقع ومشكلاته، ثم يتجاوزه باقتراح الحلول لما فيه من مشكلات أو جوانب سلبية، وقد يصل الأمر به إلى رسم صورة مثلى لما ينبغي أن يكون عليه واقعه ومجتمعه من وجهة نظره الفردية.

لقد عبّر هيجل[17] (ت 1831م) عن هذه الخاصية بقوله: إن الفلسفة "هي روح العصر الذي تنتسب إليه، إنها ليست فوق عصرها، وإنما هي وعي عصرها،"[18] أو "عصرها معبراً عنه بالأفكار."[19] وربما بالغ (الماركسيون)[20] في ربط فلسفة الفيلسوف بعصره بحيث تكون تعبيراً عنه، لكن يبقى القول بأثر العصر وظروفه ومحاولة تجاوزها أمراً موجوداً لا يُنكَر في فلسفة الفيلسوف، على تفاوت في الدرجة وفي الوضوح ومباشرة الصلة وعدم مباشرتها.

---

(17) جورج هيجل: فيلسوف ألماني يرى أن الطاقة البشرية طاقة تطويرية مستمدة من المادة، وإن كان العقل أعلى شأناً من المادة. [المحررون]

(18) نقلاً عن:
- بدوي، عبد الرحمن. **مدخل جديد إلى الفلسفة**، الكويت: وكالة المطبوعات، ط2، 1979م، ص58.

(19) مكاوي. عبد الغفار. **لمَ الفلسفة؟**، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1981م، ص47.

(20) نسبة إلى كارل ماركس: فيلسوف ألماني وعالم اقتصاد توصل إلى أن الاشتراكية هي التطور الحتمي للبشرية. [المحررون]

خ - تعتمد الفلسفة المنهج العقلي الذي جوهره التحليل وتقديم الأدلة المنطقية لإثبات ما يُقدَّم من نتائج. وتتوسل الفلسفة في بحثها عن الحقيقة بالشك المنهجي وطرح الأسئلة. وتاريخ الفلسفة يبين أن كثيراً من الآراء الفلسفية التي قدمها الفلاسفة عبر العصور لم يكن مبنياً على أدلة عقلية، وإنما كان تصورات لا دليل عليها، جرى النظر إليها عندهم -في أحيان كثيرة- على أنها مسلمات.

ثانياً: وظيفة الفلسفة عبر العصور

يبدأ الحديث -في العادة- عن الفلسفة في صورتها المتميزة بوصفها نظاماً معرفياً، يقوم على استخدام المنهج العقلي النقدي، ويتصف بالشمول والتعمق في محاولة لمعرفة حقائق الأشياء، من العصر اليوناني. لذا سنتابع هذا التقليد.

1 - عند اليونان

كانت وظيفة الفلسفة في بدايات التفلسف عند اليونان البحث في أصل الأشياء وأصل العالم، فقد تنوعت الآراء في بيان أصل العالم من القول بأنه الماء عند طاليس (ت550 ق.م)، أو النار الخالدة عند هيراقليطس (ت بعد 480 ق.م)، أو الذرات المادية عند ديمقريطس (ت361 ق.م)، أو العناصر الأربعة عند أمبدوقليس (ت430ق.م)، أو اللوغوس عند هيراقليطس(ت 480 ق.م)، أو الإله الواحد الذي لا يشبهنا عند أكزينوفان (ت480 ق.م)، الذي ظهر في تفلسفه وظيفة رئيسة من وظائف الفلسفة، وهي النقد، وذلك بانتقاده الديانة اليونانية القائمة، وغير ذلك من الآراء المعروفة تفصيلاً في كتب تاريخ الفلسفة.

ثم تحولت وظيفة الفلسفة إلى البحث في الإنسان والحقيقة الفردية أكثر من البحث في أصل الأشياء وأصل الكون والحقيقة العامة وتفسير الطبيعة، وذلك على يد جماعة السفسطائيين، وكان ذلك، في جانب كبير منه، انعكاساً لتبدل الأوضاع السياسية في بلاد اليونان، فصار "الإنسان مقياس الأشياء جميعاً" عند بروتوجوراس[21] (ت 420 ق.م تقريباً)، وأصبحت القيم نسبية إلى حدّ الفوضى.

(21) أقدم السوفسطائيين اليونانيين. [المحررون]

وجاء سقراط (ت 399 ق.م) فكرّس وظيفة الفلسفة للبحث في حقيقة الإنسان وفي الأخلاق وفي السياسة، واستخدم أسلوب الحوار والجدل سبيلاً للوصول إلى معرفة الحقيقة، من خلال الوصول إلى "الماهيات والمعاني" عن طريق العقل والأدلة العقلية.

وجاء أفلاطون(ت348 ق.م) فتابع أستاذه سقراط في فهمه لوظيفة الفلسفة في أنها بحث عن الحقيقة، ووسَّع نطاق البحث الفلسفي ليشمل كل جوانب الحياة تقريباً؛ السياسة والدولة والقوانين والتربية واللغة والفن والأخلاق، وذلك كله من أجل الإنسان وإرشاده وهدايته لتكون حياته خيِّرة فاضلة راشدة، فكان للفلسفة عند أفلاطون وظيفة اجتماعية كبرى يمكن أن نسمِّيها الوعي والهداية.

وتابع أرسطو (ت322 ق.م) أستاذه أفلاطون في النظر إلى وظيفة الفلسفة الاجتماعية ووسع نطاقها، مع أنه اتخذ اتجاهاً فلسفياً واقعياً مخالفاً الاتجاه المثالي عند أستاذه، وكانت وظيفة الفلسفة عنده البحث عن الحقيقة من جهة، من خلال الوصول إلى العلل الأولى للأشياء ومبادئها الأولى، وذلك في جزء الفلسفة النظري، وكان لها وظيفة اجتماعية شاملة، تتمثل في إرشاد الناس إلى خيرهم وسعادتهم الفردية (الأخلاق)، وخيرهم وسعادتهم على مستوى المجتمع (السياسة).

وحين اضطربت الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية بعد حروب الإسكندر المقدوني (ت 323 ق.م) ظهرت مدارس فلسفية جعلت وظيفتها الرئيسة معالجة المشكلة الأخلاقية في مستواها العملي الواقعي، وهو ما نجده عند المدرسة الأبيقورية[22] والمدرسة الرواقية؛[23] إذ حاولت كل منهما توضيح السبل التي توصل الإنسان إلى الطمأنينة وتحقق له السعادة، "على الرغم من

(22) الأبيقورية: مدرسة شهوانية تعنى بالغرائز، وتنسب إلى الفيلسوف أبيقور. [المحررون]

(23) الرواقية: مدرسة فلسفية تعتمد على تعاليم زينون الرواقي، وتدعو إلى عدم الانهماك باللذات. [المحررون]

ذل الاستعباد والخضوع،"[24] وجاءت تعاليم زينون الرواقي (ت 262 ق.م)،[25] وأبيقور(ت 270 ق.م)،[26] وكأنها العلاج الوحيد المتاح لمشكلة المجتمع اليوناني.

وفي النصف الأول من القرن الميلادي الأول، شهد تاريخ الفلسفة وظيفة جديدة نادى بها الفيلسوف اليهودي فيلون الإسكندري (ت50م)، الذي استعان بالفلسفة في تأويل نصوص التوراة التي تتحدث عن تاريخ بني إسرائيل أو عن عقيدتهم، فكانت وظيفة الفلسفة عنده مركّزة في المقام الأول على التوفيق بين الدين اليهودي ونصوصه، والفلسفة المتمثلة في آراء فلاسفة اليونان السابقين.

وفي أواخر العصر الهللينستي ظهر أفلوطين (ت270م) المصري المولد، فجعل الذوق الصوفي طوراً فوق التفكير الفلسفي وطوراً بعده، وصارت وظيفة الفلسفة عنده المساعدة في البحث عن الحقيقة التي تحصل بالاتصال بالواحد (أي الله).

وفي ضوء بيان وظيفة الفلسفة عند كبار فلاسفة اليونان، يمكن تقديم الملحوظتين الآتيتين:

أ – بحثت الفلسفة اليونانية في حقيقة العالم والوجود والإنسان، واهتمت بمشكلات الإنسان وكيفية حلها، وفي أفضل السبل في تنظيم حياته، وتحقيق خيره وسعادته على مستوى الفرد والمجتمع، وكانت الفلسفة في معظم أحوالها مرتبطة بأحوال عصرها ومشكلاته، محاولة الإجابة عن الأسئلة التي ظهرت فيه، وقامت الفلسفة اليونانية على يد عدد من الفلاسفة بنقد الديانة القائمة.

والملاحظ أن الديانة اليونانية، كانت أقرب إلى الأساطير، وأنها لم تكن قادرة على إرشاد الناس وهدايتهم بطريقة كافية وشافية وشاملة من جهة، وبطريقة

---

(24) ديورانت، ول. **قصة الفلسفة**، ترجمة: فتح الله المشعشع، بيروت: مكتبة المعارف، ط4، 1982م، ص127.

(25) زينون الأكيتومي: فيلسوف يوناني ومؤسس الرواقية. [المحررون]

(26) أبيقور: فيلسوف يوناني اشتهر بنظريته الخُلُقية في مذهب اللذة. [المحررون]

عقلية تتلاءم والعقلانية التي ظهرت في البحث الفلسفي من جهة أخرى، فرجحت كفة الفلسفة في قدرتها على تقديم هداية وإرشاد للناس، وقدرة على اقتراح الحلول للمشكلات التي يواجهونها، والإجابة عن أسئلة العصر أكثر بكثير مما كان بمقدور الديانة القائمة تقديمه.

ب – تبلور الفلسفة عند اليونان من خلال وظيفتين رئيستين:

– الوظيفة النظرية؛ المتمثلة في البحث عن الحقيقة، سواء أكانت حقيقة الوجود والعالم والإنسان، أم حقيقة كثير من المفاهيم الاجتماعية اللازمة لتنظيم حياة الإنسان، مثل مفهوم الخير والعدالة والجمال والسعادة وغيرها.

– الوظيفة العملية؛ المتمثلة في توضيح مبادئ وطرائق تعامل الإنسان في هذه الحياة مع نفسه ومع الآخرين، ومع الكون الطبيعي، ومع جميع جوانب الوجود المختلفة، بما في ذلك التعامل مع علّة الوجود ومبدعه، وذلك بغرض تحقيق السعادة للإنسان.

واستقراء تاريخ الفلسفة بعد عصر اليونان يبين أن هاتين الوظيفتين ظلتا قائمتين في كل العصور اللاحقة، بوضوح تارة، وبشكل غير مباشر تارة أخرى، أو في صور جزئية محدودة تارة ثالثة، (مثل وظيفتي النقد والتبرير وغيرهما من الوظائف الجزئية)، وأن الوظائف التي عبَّر عنها الفلاسفة في هذه العصور اللاحقة على تنوعها وتعددها يمكن بسهولة ردها إلى هاتين الوظيفتين أو إحداهما.

2 – عند أوائل الفلاسفة المسلمين

لم تظهر الفلسفة عند المسلمين، وإنما نقلت إليهم من الحضارات السابقة عامة، والحضارة اليونانية خاصة، وحين عُرِّبت كتب الفلسفة اليونانية، كان الإسلام هو المهيمن على شؤون الناس والحياة، وكانت العلوم الإسلامية قد استوت على سوقها من تفسير وحديث وفقه وكلام، وجاءت الفلسفة لتسوِّغ وجودها من خلال علوم الطب والفلك والرياضيات، بوصفها من أجزاء الفلسفة من جهة، ولتقدم نفسها [الفلسفة] على أنها الحكمة من جهة أخرى.

ولـمّا كانت نظرة المسلمين بعامة أن القرآن هو الحكمة، وأن السنة النبوية هي حكمة القرآن الكريم متجسدة على أرض الواقع، متمثلة في سلوك رسول الله ﷺ. ولـمّا كان علم الفقه هو العلم الشرعي الذي يجيب عن جميع الأسئلة التي تظهر في حياة الناس على جميع المستويات، كان من الطبيعي أن لا يكون هناك ترحيب بالقادم الجديد الذي يحمل في جعبته الدعوى بأنه يعين الإنسان في فهم حقيقة الوجود والحياة والإنسان، وأن بمقدوره تقديم الهداية والإرشاد للإنسان في هذه الحياة حتى يحقق سعادته وكماله اللائق به. وكان من الطبيعي أن تحدث منافسة أو صراع بين الهدايتين: الأولى المتمثلة في الدين، والأخرى المتمثلة في الفلسفة؛ وكان من الطبيعي أن يرفض علماء الشريعة هداية الفلسفة؛ لأنها هداية إنسانية، فضلاً عن كونها وُضِعَتْ لأمة غير أمة الإسلام، مستحضرين في أذهانهم بصورة واعية أو لا واعية قول الله -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: 35].

ومع ذلك فقد وجدت الفلسفة مكاناً لها في المجتمع الإسلامي، بسبب دعم سلطة الخلفاء والأمراء، وبسبب طبيعتها الشمولية؛ أي اشتمالها على علوم الطبيعيات من طب وفلك وغيرهما، وعلى علوم الرياضيات، إلى جانب مبحث الميتافيزيقا أو الإلهيات، وهذه العلوم -باستثناء مباحث الإلهيات- علوم يصعب إنكار حاجة الناس إليها.

لهذا كله كانت المواقف حول الفلسفة وعلاقتها بالدين الإسلامي أمراً طبيعياً في ضوء حقيقة كل منهما وطبيعته. وتوضيح ذلك في الآتي:

أ - كان لا بدّ لعلماء الشريعة بعامة والفقهاء بخاصة أن يرفضوا الفلسفة؛ لأنها منافس بشري في الهداية للدين، ووصل هذا الموقف ذروته عند ابن الصلاح (ت643هـ) والنووي (ت676هـ) في تحريم الاشتغال بالفلسفة، واحتدم النقاش في أوساط المتعلمين حول شرعية دراسة الفلسفة والمنطق والاشتغال بهما؛ هل ذلك جائز مباح أم حرام ممنوع؟ وتفاوتت الإجابات بين مجيز ومانع، إلى أن جاء أحد الفقهاء النابهين، وهو تقي الدين السبكي (ت683هـ) فأصدر

فتوى وضعت حداً لهذا النقاش الذي طال، ومفادها أن دراسة المنطق والفلسفة جائزة لمن رسخت العقيدة الإسلامية في نفسه، واستشهد بعلماء أفاضل خدموا الدين واشتغلوا بالفلسفة والمنطق مثل: أبو حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي، وقد حلّت هذه الفتوى بما انطوت عليه من بصيرة نافذة وحكمة بديعة -مع بساطة عبارتها وسهولة تمثّلها- مشكلة فكرية شرعية استمرت قائمة في العالم الإسلامي أكثر من قرنين من الزمان.

ب - كان لا بدّ للمشتغلين بالفلسفة من البحث في مشكلة علاقة الفلسفة بالدين، والاجتهاد في القول بأن الفلسفة لا تتعارض مع الدين، فكان الاشتغال بما عُرف: "قضية التوفيق بين الفلسفة والدين"، لإثبات النتيجة المفترضة مسبقاً، وهي: نتائج البحث الفلسفي الصحيحة لا تتعارض مع الإسلام، وقد كان الفلاسفة في حاجة ماسة لإثبات هذه القضية لجماهير المتعلمين وأهل العلم؛ لأنه لن يكون لأمر غير جائز في الشريعة الإسلامية مكان في مجتمع يدين بالإسلام ويحكمه في شؤونه كلها.

وهكذا وجدنا هذه القضية بارزة منذ بداية التفلسف، عند أول فلاسفة الإسلام: الكندي، الذي قال بأن كل ما أتى به الرسول الصادق محمد ﷺ وأدّاه عن الله -عزّ وجل-: "موجود بالمقاييس العقلية"؛ أي يمكن استنتاجه بالأدلة والطرق العقلية. وفي باب الردّ على منتقدي الفلسفة من المشتغلين بعلوم الدين، قال: إنه يجب عليهم الاشتغال بالفلسفة حتى يتمكنوا من الردّ عليها ونقدها. وعدّ الكندي الذين كانوا يتهمون الفلسفة بمخالفتها للشرع من علماء الدين في وقته، يتاجرون بالدين "من أجل كراسيهم المزورة"، وهم عدماء للدين؛ لأن مَن تاجر بشيء باعه فانعدم عنده.

وقد وجدنا قضية العلاقة بين الفلسفة والدين والتوفيق بينهما بارزة بقوة عند فيلسوف آخر هو الفارابي، الذي بذل جهداً دقيقاً ومتعمقاً في بحث هذه المسألة، وخلاصة رأيه أن الفلسفة والدين تتفقان في الغاية القصوى، وهي تحقيق السعادة القصوى في الدنيا والآخرة، وأنهما "تشتملان على موضوعات

بأعيانها؛"[27] أي أنهما تشتركان في البحث عن حقيقة الموضوعات الكبرى نفسها، لكنّهما تختلفان في الأسلوب والمنهج، ذلك أن "كل ما تعطيه الفلسفة من هذه [الموضوعات المشتركة] معقولاً أو متصوراً، فإن الملّة تعطيه متخيلاً، وكل ما تبرهنه الفلسفة فإن الفلسفة تقنع،"[28] فأسلوب الفلسفة الدليل العقلي البرهاني، وأسلوب الدين ضرب الأمثلة ليحصل الإقناع.

إن الفلسفة والدين عند الفارابي أمران مختلفان لكنّهما غير متعارضين، ولا على طرفي نقيض، والفلسفة فيها جزء نظري [فلسفة نظرية] وجزء عملي [فلسفة عملية]، والدين فيه جزء نظري هو "الآراء المقدرة"، وجزء عملي هو "الأفعال المقدرة"،[29] والعلاقة بين هذه الأجزاء هي أن "الجزء العملي من الفلسفة... هو الذي يعطي... برهان الأفعال المقدرة التي في الملّة الفاضلة... و.... الجزء النظري من الفلسفة... هو الذي يعطي براهين الجزء النظري من الملّة."[30] إن الأفعال المقدرة في الدين هي أمور جزئية تدخل تحت مبادئ كلية و"كلياتها في الفلسفة العملية،"[31] والآراء المقدرة في الدين، وهي قضايا نظرية مقدمة "بلا براهين"، لكن توجد "براهينها في الفلسفة النظرية."[32] وهذا الموقف لخصه الفارابي بقوله: "الجزءان اللذان فيهما تلتئم الملّة هما تحت الفلسفة."[33] وهذه "التحتية"، وإن كان المقصد الظاهر من كلامه عنها أنها كذلك من حيث الترتيب المنطقي؛ إذ النظر يسبق العمل، ومقدمات البرهان تسبق نتيجته، إلا أنها تنطوي

---

(27) الفارابي، أبو نصر. **تحصيل السعادة**، حققه وقدم له وعلق عليه: جعفر آل ياسين، بيروت: دار الأندلس، 1981م، ص90.

(28) المرجع السابق، ص90.

(29) الفارابي، أبو نصر. **كتاب الملة ونصوص أخرى**، حققه وقدم له: محسن مهدي، بيروت: دار المشرق، 1968م، ص46. انظر أيضاً:
– السيد، عزمي طه. **الدين والإيديولوجيا في مشروع الفارابي السياسي**، المفرق: دار المسار للنشر والتوزيع، 2002م، ص17–21.

(30) الفارابي، **كتاب الملّة**، مرجع سابق، ص47.

(31) المرجع السابق، ص47.

(32) المرجع السابق، ص47.

(33) المرجع السابق، ص47.

على تفضيل ضمني للفلسفة، وجعل الفلسفة والتفلسف مرتبة أعلى من الدين والتدين. ومع كل هذا، فإن الفارابي يرى أن توحيد آراء أهل المدينة الفاضلة لا يتم بالفلسفة وحدها على مكانتها وأهميتها، وإنما باعتناقهم ديناً فاضلاً، "تجتمع به آراؤهم واعتقاداتهم وأفعالهم وتأتلف.. [به] أقسامهم وترتبط وتنتظم."[34]

وقريب من آراء الفارابي في بعض جوانبها، نجد آراء ابن سينا (ت428هـ) في علاقة الفلسفة بالدين، فهو غالباً ما استخدم مصطلح الحكمة بدلاً من مصطلح الفلسفة، وهو يقسم الفلسفة -كما عند سابقيه- إلى: فلسفة نظرية وفلسفة عملية. ويرى ابن سينا في الطبيعيات، أن مبادئ الفلسفة النظرية بأقسامها الثلاثة؛ (الطبيعيات والرياضيات والفلسفة الأولى -التي تُعّد الإلهيات جزءاً منها- "مستفادة من أرباب الملّة الإلهية على سبيل التبنّي، ومتصرف على تحصيلها بالكمال بالقوة العقلية على سبيل الحجة"، كما يرى أن مبادئ الفلسفة العملية بأقسامها الثلاثة (المدنية، والخلقية، والمنزلية) "مفيد [مستفادة] من وجهة الشريعة الإلهية، وكمالات حدودها تستبين بها، وتتصرف فيها بعد ذلك القوة النظرية من البشر بمعرفة القوانين واستعمالها في الجزئيات."[35]

هذا القول يحتاج إلى شرح طويل، مختصره أن الدين فيه مبادئ كلٍّ من الفلسفة النظرية والعملية، وأن الفلسفة باستخدام الأدلة العقلية والحجج الصائبة تصل إلى حقيقة ما تبنّاه الدين من آراء نظرية فيحصل كمال الحكمة النظرية بذلك، وباستخدام العقل يصل البشر إلى القوانين الكلية التي تحكم الفلسفة العملية في كل واحد من أقسامها الثلاثة، ثم تطبق هذه القوانين الكلية على الحالات السلوكية الجزئية، فيحصل بذلك كمال الفلسفة العملية.

نصوص ابن سينا هنا تقول لنا: إن الفلسفة (الحكمة) بقسميها: النظري والعملي موجودة في الدين الإسلامي. ولكن، بصورة مقررة غير مشروحة أو مُبرْهَنٍ عليها في الجانب النظري، وبصورة جزئية مبعثرة غير مقنَّنة بقوانين عامة أو مقعدة بقواعد كلية في الجانب العملي، تقدِّم الجهد الذهني العقلي التحليلي والتركيبي لتصل إلى كمال كل جانب من هذين الجانبين.

---

(34) السيد، **الدين والإيديولوجيا في مشروع الفارابي السياسي**، مرجع سابق، ص97-99.

(35) ابن سينا، **رسالة الطبيعيات من عيون الحكمة**، الهند: طبعة بومبي، 1885م، ص2-3.

وفي موضع آخر يشير ابن سينا إشارة واضحة إلى وظيفة الفلسفة في قوله: "ولا حرج علينا إذا نظرنا في أشياء كثيرة مما يكون من عند الله أنها كيف ينبغي أن تكون."[36]

وممن عالج قضية التوفيق بين الفلسفة والدين من الفلاسفة المسلمين أبو حيان وابن رشد. أمّا أبوحيان التوحيدي الملقب بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، فقد عبّر عن موقفه من هذه القضية بعبارة واضحة؛ إذ قال: "إن الدين والفلسفة، مهما كانا مختلفين سبباً في وجودهما، يكمل أحدهما الآخر. إن الإنسان ليتقرب بالدين من الله، كما إنه ليتأمل بالحكمة قدرة الله في الكون. إن الفلسفة كمال إنساني في حين أن الدين كمال إلهي، وليس للكمال الإلهي حاجة في الكمال الإنساني، بينما هناك حاجة في الكمال الإنساني إلى الكمال الإلهي."[37]

أمّا ابن رشد (ت595هـ)، فرأيه مشهور، وهو أن الفلسفة صاحبة الشريعة وأختها الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع والمتحابتان بالجوهر والغريزة؛ ذلك أن الفلسفة نظر في الموجودات للتعرّف على حقائقها "واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع؛"[38] وعليه فإنه "إذا كانت هذه الشريعة حقاً وداعية إلى النظر المؤدي إلى الحق، فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له."[39]

ها هنا إشارة واضحة إلى أمرين؛ الأول: إن وظيفة الفلسفة هي البحث عن حقائق الموجودات، والعبور من ذلك إلى دلالتها على الصانع الذي هو الله سبحانه وتعالى. والثاني: إن الحقيقة في الدين وفي الفلسفة واحدة؛ بمعنى أنه لا تعارض بينهما.

---

(36) السيد، عزمي طه. **الفلسفة، مدخل حديث**، عمّان: دار المناهج، 2003م، ص79.

(37) التوحيدي، أبو حيان. **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، طبعة مصر، 1942م، ص8.

(38) ابن رشد. **فصل المقال في تقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، بيروت: مركز دراسات الوحدة، 1997م، ص87.

(39) المرجع السابق، ص96.

فالفلاسفة المسلمون بعامة لا يقدمون الفلسفة على الدين، ولا يرفعون شأنها فوق شأن الدين من الناحيتين: النظرية والعملية.

ت – ثم كان لا بدَّ أن يظل انتشار التفلسف والكتابة فيها محدوداً وعلى نطاق ضيّق، إذا ما قورن بانتشار كتب العلوم الدينية المختلفة. وأحد أسباب هذه الظاهرة في العالم الإسلامي، أن عامة القرّاء يجدون ما يحتاجون إليه من هداية عملية وإرشاد لأفضل طرق التعامل مع أنفسهم ومع الآخرين، ومع بقية جوانب الوجود، في كتب العلوم الدينية أكثر مما هو في كتب الفلاسفة، فضلاً عن الفرق في الأسلوب وصعوبة الفهم التي كانت صفة ملازمة للفلسفة، بل إنهم يجدون في كتب العلوم الشرعية وفي النصوص الدينية إجابات عن الأسئلة الكبرى حول الإنسان والحياة وغايتها أوضح مما تقدمه كتب الفلاسفة.

ث – إضافة إلى ما تقدم ظلت وظيفة الفلسفة عند الفلاسفة المسلمين مشابهة لوظيفتها المزدوجة عند فلاسفة اليونان، وبخاصة أفلاطون وأرسطو، فكان لها وظيفة نظرية تتمثل في البحث عن الحقيقة، ووظيفة اجتماعية تتمثل في بيان مبادئ الهداية والإرشاد للناس لكي يحققوا كمالهم الإنساني وسعادتهم في الدارين.

3 – في العصور الوسطى الأوروبية

ورثت العصور الوسطى الأوروبية التراث الفلسفي اليوناني بعامة، وتراث الفلسفة الأفلاطونية المحدثة على وجه الخصوص، التي امتزجت باللاهوت المسيحي منذ عصر آباء الكنيسة الأوائل. وفي القرن الثاني عشر الميلادي تقريباً، بدأ الاطلاع على الفلسفة الإسلامية بوساطة ترجمات كتب أعلامها: الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد، وبوساطة ترجمة الأعمال الفلسفية لهؤلاء الأعلام –وخاصة أعمال ابن رشد– تعرّف الأوروبيون على فلسفة أرسطو.

كانت الكنيسة هي المسيطرة في أغلب العصور الوسطى، وكان لها نفوذ قوي في المجتمعات، وكانت الفلسفة محصورة في رجال الدين والكنيسة، فكان من الطبيعي أن تظهر عند رجال الدين الفلاسفة مشكلةُ العلاقة بين الفلسفة

والدين، أو مشكلة العلاقة بين الإيمان بالدين والتعقل، ولم تنجح جهود الفلاسفة المتتابعين في العصور الوسطى الأوروبية في إثبات التوفيق بين الدين المسيحي والفلسفة، وانتهت جهودهم بتقرير "نظرية الحقيقتين" التي قال بها توماس الإكويني (ت1274م)، فهناك حقيقة في الدين تستند إلى الإيمان بالوحي الإلهي، وحقيقة في الفلسفة تستند إلى العقل، والفلسفة بجانب كونها تبحث عن الحقيقة، إلا أنها -عند توماس الإكويني- تخدم الدين، فهي تقوم بإثبات الحقائق الدينية وتوضيح مفاهيمه ومعانيه.

هكذا كانت وظيفة الفلسفة منصبة في الدرجة الأولى على الوظيفة النظرية؛ أي البحث عن الحقيقة، ثم مع وجود الدين المسيطر كانت تحاول خدمة الدين. لكنّ هذه الوظيفة الأخيرة بدأت تتلاشى عندما بدأت سلطة الدين في الانحسار والتراجع في عصر النهضة والعصور الحديثة تالياً.

4 - في عصر النهضة الأوروبية

بدأت في هذا العصر حركة التحرر من سلطان الكنيسة ورجالاتها، وكذلك من السلطة الفكرية لفلسفة أرسطو، وظهرت رغبة قوية في تغيير نمط الحياة الفكرية الذي كان سائداً في العصور الوسطى، وبدأ الهجوم على الماضي، وتنامي انتقاد الكنيسة والدين المسيحي في أحيان كثيرة، وتكرر القول بأن الدين لا يصلح لتفسير الطبيعة، وبدأ عدد من الفلاسفة بنشر الإلحاد "تحت ستار من فلسفة أرسطو وابن رشد،"[40] وظهر فلاسفة يبحثون في الأخلاق بعيداً عن الدين، وساعدت الكشوف الجغرافية والعلمية في تدعيم هذه التوجهات، وهكذا قامت الفلسفة في هذا العصر بوظيفة النقد وهدم القديم، وأخذت على عاتقها القيام بهداية الإنسان وإرشاده إلى أصوب الأخلاق بعد تنحية الدين وأخلاقه، والتقليل من شأنها. واستناداً إلى مبدأ الحرية والتحرر من الماضي، تعددت المذاهب الفكرية والفلسفية، واجتهدت في تقديم أفكار أفضل مما في الدين، لمساعدة الإنسان وإرشاده في حياته الجديدة التي يريدها الناس أن تختلف عما كانت عليه في العصور السابقة؛ إذ لم تكن فيها الحريات بعامة وحرية التفكير

(40) عبد الحميد، حسن. **مدخل إلى الفلسفة**، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت، 1978م، ص166.

بخاصة أمراً متاحاً. وقد استمر هذا التوجه ووصل إلى غاياته في العصر الحديث.

5 - في العصر الحديث

تابع فلاسفة العصر الحديث الاتجاه الذي ظهر في عصر النهضة من التحرر من سلطة الكنيسة وآرائها، وممارسة حرية التفكير دون قيود، سوى القيود التي تفرضها قوانين العقل، وبدأ الفلاسفة بإنشاء أنساقهم الفلسفية المتباينة، واحتل البحث في المعرفة وطبيعتها مكانة متقدمة على البحث في الوجود، واستمر نقد الفلسفة التقليدية التي سادت العصور الوسطى، وكانت فلسفة أرسطو محورها. فجاء فرنسيس بيكون (ت1626م) وهاجم الفلسفة التقليدية، وانتقد الجامعات والعلوم التي تدرّس فيها، وانتقد الفلاسفة الذين مزجوا الفلسفة بالدين، مثل أفلاطون، إضافة إلى شراح أرسطو، وأكد الوظيفة الاجتماعية للعلم، وهي "ابتكار المصادر الجديدة لسعادة الإنسان"، وأن الفلسفة هي التي تعين على ذلك، بأن تبين المنهج السليم المنتج للبحث الفلسفي والعلمي، وقد خصَّص لهذا المنهج كتابه المعروف: "الأورجانون الجديد".

ثم جاء ديكارت (ت1650م) وأكد أن للفلسفة وظيفة عملية اجتماعية هي: تحقيق الخير والرفاهية والسعادة للناس، وأنه بالعلم يهيمن الإنسان على الطبيعة. وقد اهتم ديكارت بالمنهج الذي يعين المفكر والعالم في الوصول إلى الحقيقة. والحق الذي نراه أن اهتمام بيكون وديكارت بالمنهج كان استجابة لحاجة حضارية قائمة في عصرهما، فالمجتمعات الأوروبية تتطلع إلى مرحلة جديدة وتتلمس السبل نحو إقامة مشروع حضاري، وهذا يحتاج إلى العلم، ولا يتوصل إلى العلم دون منهج سليم.

واهتم فلاسفة آخرون بالمنهج مثل جماعة بور رويال، ومالبرانش، واسبينوزا (ت1677م) الذي كتب رسالة في إصلاح الذهن، واهتم بالأخلاق والسياسة والدولة والحرية، وانتقد العهد القديم، وأطلق عليه فيما بعد "النقد الأعلى،"[41] فكان للفلسفة عنده وظيفةٌ نقدية ووظيفة عملية اجتهادية، بجانب الوظيفة الرئيسة،

(41) رسل، برتراند. **حكمة الغرب**، ترجمة: فؤاد زكريا، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، سلسلة عالم المعرفة (72)، 1983م، ج2، ص79.

وهي: البحث عن الحقيقة.

وهكذا ظلت الفلسفة في جانب من جوانبها بحثاً عن الحقيقة، لكنها أيضاً أخذت على عاتقها بيان المنهج الذي يوصل إلى الحقيقة، بجانب شعور الفلاسفة القوي بمسؤوليتهم عن إصلاح الأوضاع الفاسدة، وخلق أوضاع جديدة؛ فبرزت وظيفة الفلسفة العملية الاجتماعية لتقديم العون والإرشاد للإنسان في تحقيق خيره وسعادته، ومن الفلاسفة الذين جعلوا للفلسفة وظيفة اجتماعية توماس هوبز (ت1679م) الذي قدم نظرية في الحكم والسيادة والدولة، إضافة إلى بحوثه المتعلقة بالمعرفة واللغة وعلم النفس.

وجاء صاحبا مذهب المنفعة: بنتام (ت1832م)، وجون ستيوارت مل (ت1873م)، فبنوا على فكرة المنفعة مذهباً أخلاقياً فلسفياً، فأكّدا بذلك الوظيفة العملية الاجتماعية للفلسفة.

وجاء عصر التنوير (أو الأنوار) الذي ارتبط بازدياد المعرفة العلمية وانتشارها؛ إذ صار النشاط العقلي الحرّ، هو المحرك للفلسفة والعلم، وانتشرت "أنوار العلم" بفضل العقلانية التي كانت السمة الرئيسة في هذا العصر، ومن أبرز من مثَّل هذا العصر الكتاب والعلماء والفلاسفة ديدرو (ت1784م)، وهو من الفلاسفة الذين كتبوا "الموسوعة الشهيرة"، وكانت وظيفة الفلسفة كما ظهرت فيها، خلق "موقف مستنير من الحياة ومشاكلها يقدم إلينا عوناً هائلاً في سعينا إلى إيجاد حلول مناسبة نتغلب فيها على صعوباتنا،"[42] والمساهمة في "تحقيق مستقبل جديد أكثر سعادة للبشر."[43]

ويمثل هذا العصر فيلسوف بارز هو إيمانويل كانط (ت1804م)، فكانت الفلسفة عنده نظرية وعملية، وركز في فلسفته على وظيفة النقد، من أجل الوصول إلى الحقيقة في مجالي الوجود والمعرفة. وفي الجانب العملي في فلسفته اهتم بموضوع الأخلاق والإرادة، محاولاً الإجابة عن السؤال الرئيس: "كيف ينبغي أن يكون سلوكنا في هذه الحياة". ومع أن الباحثين يرون أن كانط في بحثه الأخلاقي

(42) المرجع السابق، ص151.

(43) المرجع السابق، ص152.

كان متأثراً بنشأته الدينية، إلا أنه وضع مبادئ للسلوك الأخلاقي، لقيت اهتماماً واسعاً ونالت شهرة عريضة، وكأنها بديل للنظرة الدينية أو منافس قوي لها.

لقد ظهرت في عصر التنوير كثير من الفلسفات والنظريات في مختلف مجالات الحياة، في الاقتصاد والاجتماع والأخلاق والسياسة، وكلها نظريات تزعم أنها تريد تنظيم حياة الإنسان وتحقيق سعادته دونما حاجة إلى الاستعانة بالدين، اكتفاءً بنشاط العقل وحده.

وظهرت الحركة الرومانسية في جانب منها، ردَّ فعل على إعلاء شأن العقل وإهمال جانب العواطف والانفعالات، وقدم الرومانسيون آراءهم في الحياة والأخلاق مدفوعين بالعواطف المختلفة، وكان اهتمام الفلاسفة الرومانسيين هو حلّ المشكلات التي يواجهها الإنسان، لكنّ طريقتهم كانت مختلفة عن طريقة فلاسفة التنوير العقلانيين.

ومن الفلاسفة البارزين في القرن التاسع عشر الفيلسوف الألماني هيجل (ت1831م) الذي وصف رَسِلْ فلسفته "بأنها تؤكد أولوية العملي؛"[44] أي الفلسفة العملية؛ إذ اهتم بالتاريخ وتفسيره وبالسياسة والدولة، فكان للفلسفة عنده وظيفة عملية اجتماعية بجانب الوظيفة النظرية في البحث عن الحقيقة.

6 – في الوقت المعاصر لدى الغرب

تعددت الاتجاهات والتيارات الفلسفية في المدّة المعاصرة، واهتمت هذه الاتجاهات بموضوعات وقضايا محددة، ولم يعد الفلاسفة يهتمون بإشادة أبنية فكرية شاملة، ومن أبرز هذه الاتجاهات: الفلسفة البرجماتية التي ركزت على نتائج العمل وصلتها بالأفكار، والفلسفة الوجودية التي اهتمت بوجود الإنسان، وجعلت وظيفتها الرئيسة الإجابة عن الأسئلة التي توجهها الحياة إلى الإنسان، والفلسفة الماركسية التي ترى أن وظيفة الفلسفة النهائية تغيير هذا العالم، والفلسفة التحليلية بتياراتها المختلفة، التي تشترك في القول بأن الوظيفة الرئيسة للفلسفة هي التحليل؛ سواء التحليل المنطقي للغة كما عند الوضعية المنطقية، أو التحليل الواقعي للممارسة العلمية كما عند برتراند رَسِل، وفلسفة الظاهرات

(44) رسل، **حكمة الغرب**، مرجع سابق، ص175.

(الفينومينولوجيا) عند هوسرل (ت1938م) الذي عرّف فلسفته بأنها "منهج للبحث عن الحقيقة،"[45] وغير ذلك من التيارات الفلسفية.

وفيما يتعلق بوظيفة الفلسفة اشتركت هذه الفلسفات في اهتمامها بالإنسان وحياته ومشكلاته ومصيره، وإن اختلفت في الجوانب التي عالجتها مما يتعلق بالإنسان، وفي طريقة المعالجة. وكان لا بدّ للفلسفة المعاصرة –وهي تبحث في الإنسان ومشكلاته المتعددة– من بحث علاقة العلم بالإنسان، وعلاقة الفلسفة بالعلم، وبيان أسس العلوم المختلفة ومبادئها العامة.

وبشكل عام يمكن القول إن الوظيفة الاجتماعية للفلسفة قد استمرت في تاريخنا المعاصر. لكن، بطريقة أقل مثالية وأكثر واقعية مما كانت عليه هذه الوظيفة في العصر الحديث.

7 – في عالمنا العربي الإسلامي المعاصر

استوعب تاريخ الفلسفة إلى حد كبير الإجابات المحتملة عن سؤال وظيفة الفلسفة. وأول ما يمكن تقريره من استعراض وظيفة الفلسفة عبر العصور، هو أن الفلسفة عبر تاريخها الطويل كانت تقوم بوظيفتين رئيستين، هما: الوظيفة النظرية المتمثلة في الوصول إلى حقيقة الموضوع التي تبحث فيه، مع اختلاف بين الفلاسفة في مفهوم الحقيقة. والوظيفة العملية الاجتماعية التي تسعى لمعالجة قضايا الإنسان ومشكلاته وطموحاته.

ونستطيع أن نسرد قائمة طويلة بالوظائف التي قامت بها الفلسفة عبر تاريخها تندرج تحت كل من هاتين الوظيفتين، فقد قامت الفلسفة بدراسة الوجود والبحث عن مبادئه الأولى، ودراسة الإنسان والبحث عن مبدئه ومصيره والغاية من وجوده، ودراسة مشكلات الإنسان في واقعه ومحاولة فهمها، ونقد الواقع بمختلف جوانبه، ونقد الأفكار، ومحاولة فهم حقيقة التاريخ والقوانين التي تحكم مسيرته، وطرح الأسئلة وإثارة الإشكالات المختلفة، ومحاولة معرفة حقيقة الدين وحقيقة العلم وما بينها من علاقات، وحقيقة الحق والخير والجمال،

(45) هويدي، يحيى. **مقدمة في الفلسفة العامة**، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ط9، 1979م، ص235.

والقيام بالتحليل لفهم حقيقة الواقع أو اللغة أو الحقائق العلمية، أو تبرير واقع قائم أو اتجاهات معينة، وغير ذلك مما مارسه الفلاسفة عبر العصور، وهذا كله يندرج تحت الوظيفة النظرية التي غايتها معرفة الحقيقة.

أمّا بيان مبادئ السلوك والفعل الإنساني واقتراح الحلول والمشاريع والاستراتيجيات المختلفة، لإصلاح أوضاع المجتمعات المتدهورة، أو للمحافظة على ما وصلت إليه من أوضاع إيجابية، أو لتجديد هذه الأوضاع، أو لتحقيق تقدم أكثر لها في المجالات المختلفة: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية وغيرها، وما اقترحه الفلاسفة من مبادئ وقواعد للسلوك لترسيخ القيم أو هوية مجتمع ما، أو لزيادة التواصل وإحلال السلام بين أفراد المجتمع الواحد أو بين المجتمعات المختلفة، وبيان مبادئ التفكير وضوابطه ووضع المناهج المختلفة، وغير ذلك مما قام به الفلاسفة عبر العصور فإنه يندرج تحت الوظيفة العملية الاجتماعية للفلسفة.

إضافة إلى ذلك هناك الوظيفة التي تحققها الفلسفة للمتفلسف، وهي: المتعة العقلية، والشعور بسمو النفس وزيادة كمالها، وبأن نور الحقيقة قد عَمَرَ الروح، وصار يفيض عنها. وهذا الأمر الذاتي سينعكس بالضرورة على المجتمع، فيثمر واحدة أو أكثر من الوظائف التي أشرنا إليها سابقاً.

إن وظيفة الفلسفة بشقيها: النظري والعملي، صاحَبها في الوجود على مرّ العصور وظيفة الدين، وهذه الوظيفة يمكن تلخيصها بكلمة واحدة، هي: الهداية، وتعني إرشاد الإنسان إلى أمرين رئيسين وبيانهما؛ الأول: الغاية من وجود الإنسان؛ أي الغاية التي خُلِقَ من أجلها، والتي ينبغي أن يكون سلوك الإنسان في كل جوانبه، جليلها وبسيطها، محققاً لها. والثاني: الطريق والمنهج والسلوك المؤدي إلى هذه الغاية في أيسر صورة وأسهلها وأقصرها. وهذا الأمر الثاني قد يكون إرشاداً وبياناً في صورة جزئية تفصيلية، أو في صورة عامة؛ أعني في صورة مبادئ، أو قواعد كلية، أو ضوابط عامة.

هذه الوظيفة العملية الاجتماعية للدين تشاركه فيها الفلسفة – كما أشرنا سابقاً– مع أن ما تقدمه الفلسفة في هذه الوظيفة يكاد يقتصر على المبادئ

العامة والقواعد والضوابط دون التعرض للقضايا الفردية والحوادث الجزئية. ومن هنا كان من الطبيعي أن تكون بين الفلسفة والدين العلاقات التي أشرنا إليها؛ الإيجابية والسلبية.

والواقع أن الدين – كما بيَّن الفلاسفة المسلمون وغيرهم– تعرَّض للقضايا الإنسانية الكبرى التي بحثتها الفلسفة، وقدَّم الدين رأيه فيها على سبيل "التبنّي" كما وصفها ابن سينا، دون تقديم البراهين والحجج التفصيلية في أكثر القضايا، كما تعرض للإرشاد من خلال تحديد الأفعال التي تحقق الغاية التي خُلِق من أجلها الإنسان؛ أي إن في الدين جانبين – كما حدده الفارابي–: "آراء مقدرة"، و"أفعال مقدرة"، وهذا يناظر –على التوالي– في الفلسفة: الجزء النظري، والجزء العملي.

فإذا كانت المصاحبة بين الفلسفة والدين أمراً واقعياً لا مجال لإنكاره، كان لا بدّ لوظيفة كل منهما من المصاحبة في الواقع الفعلي، ونقصد بالصحبة التزامن في الوجود وليس معنى الموافقة بالضرورة، وقد لاحظنا على هذه المصاحبة العلاقات الآتية:

أ – حين لا يكون الدين مؤدياً لوظيفته بطريقة وافية ومقنعة لغالبية الناس والمتعلمين، فتكون الآراء المقررة فيه (الجانب النظري) تقدم إجابات قاصرة غير مقنعة عن الأسئلة الإنسانية الكبرى (الله، والكون، والإنسان، والمبدأ، والمصير)، وتكون الأفعال المقدرة فيه (الجانب العملي) لا تحقق للإنسان السكينة والطمأنينة والخير الحقيقي الذي يقتنع به الناس أنه كذلك بالفعل. وإذا كان أمر الدين كذلك، فإن الفلسفة ستنهض لتملأ هذا الفراغ الذي لم يشغله الدين، وهذه الحاجة الماسة إلى الهداية والإرشاد، فتبدأ بنقد الدين القائم الذي هذا شأنه، ثم تقدم هي الهداية والإرشاد للناس في مجتمعها بقدر ما تسمح به طبيعتها، فتقدم الآراء النظرية في القضايا الوجودية الكبرى، وتقدم المبادئ والضوابط للسلوك الذي ترى أنه يعين الإنسان على تحقيق خيره وسعادته. ونكاد نجزم أن هذه العلاقة مطردة.

ومثال ذلك ما كان في الحضارة اليونانية، فقد كانت الديانة السائدة فيها

هي ديانة هوميروس وهزيود، التي تقول بتعدد الآلهة، وتُصوِّرها كالبشر في جانبهم السلبي، فهم يتنافسون ويتخاصمون ويخطف أحدهم زوجة الآخر، وينصبون المكائد لبعضهم، ومع هذا لم تكن هذه الديانة قادرة على تقديم المبادئ أو التوجيهات التي تقنع الناس في المجتمع اليوناني بأنها تحقق لهم خيرهم وسعادتهم، فظهر بعض الفلاسفة ينتقدون الديانة القائمة ويبينون سذاجة تصوراتها عن الإله، وعدم قدرتها على إرشاد الناس لما فيه خيرهم، ثم قاموا بتقديم البديل في جانب "الآراء المقدرة"؛ أي الجانب النظري، وفي جانب "الأفعال المقدرة"؛ أي الجانب العملي، ليعينوا الإنسان على الوصول إلى خيره وسعادته. وقام بهذه المهمة فلاسفة من مثل: أزينوفان، وأفلاطون، وأرسطو، والأبيقوريون، والرواقيون، وغيرهم. وصارت الفلسفة هي التي تقدم الهداية الفضلى لإنسان المجتمع اليوناني.

وشبيه بهذا الأمر ما جرى في العصور الحديثة في الغرب، حين قوي التوجه العَلماني، وبدأ بعض الفلاسفة في انتقاد الدين المسيحي ورجاله، وانتقاد الكنيسة ومطالبتها بأن لا تتدخل في هداية الإنسان وإرشاده وتنظيم شؤون حياته، ووصل حدّ انتقاد الدين عند بعض الفلاسفة، مثل دانتي وفولتير وغيرهما، إلى القول بأن الدين والكنيسة سبب فساد الأخلاق، فضلاً عن الجمود والتخلف ومعاداة العقل، ثم ظهر مفكرون وفلاسفة في شتى المجالات يقدمون الأفكار ويضعون النظريات لهداية الناس وإرشادهم في تنظيم شؤون حياتهم، فرأينا آراء ونظريات في الاقتصاد والاجتماع والأخلاق والسياسة والقانون وغيرها، وتضاءل الاعتماد على الدين في هذه المجالات إلى حدّه الأدنى.

وازدادت الثقة بالفلسفة وقدرتها على حل مشكلات الإنسان وتقديم العون والإرشاد له، وانتشرت كتبها أكثر من انتشار الكتب الدينية، لما انطبع في أذهان غالبية المتعلمين في الغرب من فكرة سلبية عن الدين ورجاله، وأنهما سبب ظلام العصور الوسطى، فصار الميدان مفتوحاً للفلسفة والفلاسفة يصولون ويجولون في ملعب ليس فيه إلا خصم ضعيف منهك القوى، يكاد لا يقوى على اتقاء ما يوجه إليه من ضربات، والعجز عن الرد على أية انتقادات.

ب – حين يوجد في المجتمع دين قوي قائم بأداء وظيفته في الهداية، يقدم لأتباعه وللناس بعامة أجوبة مقنعة عن الأسئلة الإنسانية الكبرى من خلال الجانب النظري، ويقدم من خلال الجانب العملي ما يرشد الإنسان إلى السلوك الملائم في تعامله مع ذاته، ومع الآخرين، ومع جوانب الوجود المختلفة، ويبعد عنه الحيرة ويحقق له خيره وسعادته. إذا كان أمر الدين كذلك، فإن الفلسفة في مثل هذا الواقع لن تدَّعي أنها ستكون بديلاً عن الدين في تقديم الهداية للناس، وستجتهد في القول والبيان بأنها متوافقة مع الدين في الغايات، وأنها لا تتعارض مع هذا الدين، مع اختلاف أسلوبها في الوصول إلى غاياتها عن أسلوب الدين. وفي أحيان أخرى يمكن أن تضع الفلسفة خبرتها وآلياتها وجهازها المفاهيمي في خدمة الدين؛ تدعيماً لما فيه من آراء نظرية تتعلق بالأسئلة الإنسانية الكبرى، معتبرة أن هذا الفعل جزء من وظيفتها التي تقدمها للناس في مجتمعها هذا، ونكاد نجزم أن هذه العلاقة مطردة.

وبموازاة ذلك حال الفلسفة في المجتمع الإسلامي إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، فقد جاء الإسلام ديناً شاملاً في هدايته للإنسان في جوانب حياته المختلفة، فقدم آراءً وأجوبة محكمة عن الأسئلة الإنسانية الكبرى باعتراف الفلسفة، وقدم إرشاداً وهداية عملية شاملة في تعامل الإنسان مع جميع جوانب الوجود (الخالق والمخلوقات) وجاء ذلك في صورة مبادئ وضوابط عامة وقواعد كلية أحياناً، وفي صورة جزئية تفصيلية في أحيان أخرى، وكان لا بدّ أن يأتي موقف الفلسفة كما أشرنا من توافق وانسجام.

لقد بدأ الحديث عن اتفاق الدين والفلسفة في الغايات عند غالبية الفلاسفة البارزين، إن لم يكن جميعهم، واجتهد الفلاسفة، كلٌّ بطريقته، في تأكيد توافق الفلسفة (الصحيحة) مع الدين، وأكدوا اختلاف الأسلوب في كل منهما، بل ظهر فلاسفة وبخاصة المتكلمون، يسخِّرون آليات الفلسفة ومفاهيمها في خدمة الدين وبيان صواب "آرائه النظرية المقدرة"، ورشاد "أفعاله المقدرة"، ونجاعتها في تحقيق الخير والسعادة للناس جميعاً، بل وصل الأمر إلى أبعد من ذلك؛ إذ سخَّر بعض المفكرين والفلاسفة منهج الفلسفة العقلي، وآليات الفلسفة من تحليل وتركيب، وجهازها المفاهيمي لاستنباط آراء ونظريات تتعلق بجوانب النشاط

الإنساني المختلفة على مستوى النظر وعلى مستوى العمل، ونجد ذلك في أعمال مفكرين من مثل: ابن حزم، والغزالي، وفخر الدين الرازي، وابن تيمية، وغيرهم، معتمدين على مسلّمة أن النص الديني في الإسلام (القرآن والسنة) حق، وبالطرق الصحيحة للاستنباط نصل من الحق إلى الحق، فالنتائج تأتي متساوقة مع المقدمات.

هذا ما لاحظناه من وظيفة الفلسفة في حالة الحضارة الإسلامية.

وقديماً قام فيلون الإسكندري بتسخير الفلسفة وآلياتها ومنهجها في خدمة التوراة والدين اليهودي، في وصف قريب إلى حدّ ما في جوهره مما قدمناه عن حال الفلسفة مع الإسلام.

ت – حين تكون قدرة الدين منقوصة أو ضعيفة أو غير شاملة تجاه تحقيق الهداية، فإن "الآراء المقدرة" فيه، تقدم إجابات غير شافية أو قاصرة في بعض جوانبها عن الأسئلة الإنسانية الكبرى، كما أن "الأفعال المقدرة" فيه لا تقدم العون الكافي في إرشاد الإنسان إلى أصوب الطرق في التعامل مع جوانب الوجود، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الفلسفة من جانبها تتصدى لتعويض هذا النقص الواقع في مثل هذا الدين، وخصوصاً في مجال "الآراء المقدرة"، ويحاول الدين من جانبه أن يكمل ما فيه من نقص بإدخال عناصر أو أفكار من الفلسفة في الدين، وإظهارها على أنها جزء صميم فيه، وفي مثل هذه الحال يحدث نوع من التنافس أو الصراع بين الفلسفة والدين، كل يشعر أنه الأهم وله الأولوية على الآخر، لكن هذا الصراع أو التنافس على الأولوية والأهمية لا يصل إلى حدّ أن يلغي أحدهما الآخر، ويظل الأمر كذلك إلى أن تظهر عوامل خارجية ترجح جانباً على الآخر، فتجعل له الأولوية وتجعل للآخر المنزلة الدنيا أو الثانوية أو المحدودة، ونكاد نجزم أن هذه العلاقة مطردة.

ومثال هذه الحالة، وظيفة الفلسفة في العصور الوسطى، في ظل وجود الدين المسيحي، الذي كان في جانبه النظري قاصراً عن المطلوب فاستعان بالفلسفة. أمّا قصور الجانب العملي فكان يُستدرك مع مرور الزمن بتقدير رجال الدين أفعالاً جديدة، وقد ظل الحال في تلك العصور الوسطى تجاه وظيفة كل

من الفلسفة والدين، بين شدٍّ وجذب، دونما حسم لطرف على الآخر، حتى جدّت ظروف في المجتمع، وهي قوة السلطة الدنيوية، التي دعمت الفلسفة على حساب "سيف" الدين ممثلاً في سلطة الكنيسة.

بعد هذه المحاولة لإيجاد قانون للعلاقة بين وظيفة كل من الفلسفة والدين وفقاً لطبيعة كل منهما، محاولين التدليل عليه من تاريخ المصاحبة بين الفلسفة والدين، ننتقل إلى "المقصد الأسنى" لهذا البحث، وهو السؤال عن وظيفة الفلسفة في العالم العربي الإسلامي المعاصر، فنقول:

إن الدين الإسلامي ضارب بجذور قوية راسخة في هذا العالم؛ في ضمائر العرب المسلمين وقلوبهم، وفي تاريخهم، وفي لغتهم، ومقدساتهم، وممارساتهم، والغالبية العظمى من طرائق تعاملهم في هذه الحياة مع جوانب الوجود المختلفة.

ومن جانب الفلسفة، فإننا في عالمنا العربي الإسلامي، ما زلنا نستورد الفلسفة في الأعم الأغلب، ونتفلسف في ضوء فلسفات غيرنا، ثم إن هذه الفلسفة المستوردة لم تستطع أن تثبت قدرة على تقديم هداية وإرشاد ومعاونة في حلّ المشكلات بقدر ما قدمه الدين، وما يمكن أن يقدمه، فضلاً عن كون دوائر انتشار الفلسفة وشيوعها محدودة إذا ما قورنت بدوائر انتشار الدين. وفي كل مرة تصدت فيها الفلسفة للدين وطرحت نفسها بديلاً عنه من خلال عباءة العلمانية اللادينية،[46] كان الفشل من نصيبها، مع وجود الدعم الذي كانت الفلسفة تلاقيه من بعض الجهات ذات النفوذ في الداخل، وأحياناً من الخارج.

ولأن الدين الإسلامي ضارب بجذوره الراسخة في العالم العربي الإسلامي؛ فإنه يكاد يكون من المستحيل -والحال كذلك- أن تنافس الفلسفة الدين في الوظيفة أو تقوم بوظيفته.

(46) نذكّر هنا بالمناظرة التي جرت بين فؤاد زكريا أستاذ الفلسفة ممثلاً للعلمانية وللفلسفة، والشيخين المرحوم محمد الغزالي ويوسف القرضاوي ممثلين للدين، وذلك في القاهرة في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي.

خاتمة

إننا لا نقصد أن نقول -في ضوء هذا الواقع الراهن- إنه لا حاجة بنا إلى الفلسفة، وإن علينا أن نطرحها جانباً؛ وإنما مقصودنا أن تقوم الفلسفة بدورها ووظيفتها في ضوء هذا الواقع بطريقة تساهم فيها بتحقيق الخير لهذا العالم العربي، بالمساهمة في بناء مشروعه النهضوي. ولتحقيق هذا الهدف السامي ينبغي للفلسفة في العالم العربي الإسلامي أن تقوم بالوظيفتين الرئيستين للفلسفة: الوظيفة النظرية والوظيفة العملية، فلا تهمل أياً منهما. وعلى الفلسفة أن تتخلى عن الزعم -الموجود عند بعض المتفلسفين- بأنها قادرة على هداية إنسان العالم العربي مستقلة بهذه الوظيفة بعيداً عن الدين، على شاكلة ما جرى في العصور الحديثة. وينبغي للفلسفة ألا تناصب الدينَ العداء بشكل ظاهر مباشر، أو مبطّن غير مباشر، بل إن عليها أن توثق عرى الصداقة والتعاون مع الدين.

وفيما يتعلق بالوظيفة النظرية، فإن الفلسفة في العالم العربي الإسلامي المعاصر مطالبة بالاستمرار بالقيام بهذه الوظيفة التي هي - بطبيعة الحال- عمادها، فتقوم بنقد الأفكار ونقد الواقع، وطرح التساؤلات الممهدة لإجابات تعين إنسان هذا العالم العربي في إصلاح أوضاعه، وتضع التصورات التي يمكن أن تعينه في دفع المضار وإزالة العقبات، وتحقيق المصلحة والخير والتقدم له، وتستعين على ذلك بإرثها التاريخي الطويل، وبما لديها من آليات، ووسائل، ومقدرة على التحليل والتركيب وإنشاء المفاهيم، فتكون إشكالاتها هي إشكالات مجتمعها وأمّتها أولاً؛ حتى يدرك هذا الإنسان أن للفلسفة جدوى في حياته، ودوراً إيجابياً تقوم به.

وعلى الفلسفة في هذه الوظيفة أن تتعاون مع الدين بما ورد فيه من إجابات عن الأسئلة الإنسانية الكبرى، وذلك من أجل إنشاء فلسفة نظرية عربية إسلامية، غير متنكرة للمسلَّمة الإسلامية: إن الوحي الإلهي المتمثل في القرآن والسنة حق أنزله الحق "خالق كل شيء". وهذا يقتضي أن تمارس الفلسفة وظيفتها منضبطة من جهة بالضوابط التي وضعتها لنفسها عبر تاريخها الطويل، إضافة إلى ضابط مهم جرت الإشارة إليه آنفاً، وهو أن لا تبالغ في ممارسة وظيفتها لدرجة تتجاوز

وظيفة الدين، بل تلتزم بضوابط الدين في جانب حدود العقل، وحدود المعرفة الإنسانية، وعدم معارضة ما هو صريح محكم من الحق الوارد في الدين.

وعلى الفلسفة أن تقوم بهذه الوظيفة المنضبطة باذلة جهداً مقصوداً في إيصال أفكارها إلى أكبر قدر من الناس والمتعلمين في هذا العالم العربي الإسلامي، يقتضي من جملة ما يقتضيه، أن نتفلسف بلغة هذا العالم، وأن نجتهد ما أمكننا ذلك، تجنب الغموض والتعقيد، والخوض في المقصود وغير المقصود، إذا ما أرادت الفلسفة أن توصل أفكارها ورسالتها إلى الناس، فـ"تتغلغل في التداول اليومي"[47] حتى تكتب لها الحياة.

وعلى الفلسفة في العالم الإسلامي أن تقوم بوظيفة خاصةً هي؛ الالتفات إلى التجربة الفلسفية للأمة العربية الإسلامية، استخلاصاً لما فيها من عِبَرٍ يمكن أن تفيد منها في حاضرها، فضلاً عن ضرورة التواصل مع ماضي هذه الأمة وعدم افتعال قطيعة مع تراثها بعامة ومع تراثها الفلسفي بخاصة. وهذا التواصل لا يعني نقل أفكار الماضي للحاضر، والاكتفاء بتقليد الأجداد.

أمّا فيما يتعلق بالوظيفة العملية للفلسفة في عالمنا العربي الإسلامي المعاصر، فإننا نرى أن الفلسفة تستطيع تقديم الكثير والنافع، بأن تنظر في الدين وفي جانبه العملي على وجه الخصوص، وتستخلص منه المبادئ العامة للسلوك على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة، وتبين لإنسان هذا العالم المرجعية القيمية المتكاملة لتعامل الإنسان في هذه الحياة مع جميع جوانب الوجود، وتوضح مبادئ التعامل في كل جانب، باستنباطها من الدين، مستفيدة من إرثها الطويل في جانب الفلسفة العملية، وهو أمر يحتاج إليه الإنسان العربي، بل وكل إنسان في هذا الكون.

ومن وظائف الفلسفة -إضافة إلى ما وردت الإشارة إليه- استخلاص "فلسفة الدين" من وجهة نظر الإسلام، بطريقة مهنية منطقية عقلانية، تظهر فيها حقيقة الدين ودوره ووظيفته في حياة الإنسان. وعلى الفلسفة في العالم العربي

(47) عبد الرحمن، طه. **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، الدار البيضاء - بيروت: المركز الثقافي العربي، 2002م، ص108.

الإسلامي، أن لا تقف عند حدّ عدم معاداة الدين، بل عليها القيام بوظيفة الدفاع عن الدين ضد كل مَن يريد به سُوءاً أو شراً، بطريقة تلائم مستجدات العصر والروح العلمية السائدة فيه.

obeikan.com